قصة قصيرة

«محاولة»

هاشم غرايبة

اقتادوني إلى عيادة العيون تحت حراسة مشدَّدة وعدت.

ــ عد إلى مكانك.

لم أكن بحاجة لهذا الأمر، فقد كنت مشتاقاً للعودة بعد الفترة التي قضيتها مع الطبيب.

أخيراً وصل الدَّور لها.

ــ مرضكِ؟

ــ . . .

ــ شو مرضك يا بنت؟

ارتبكت وأطرقت خجلة صامتة، لذّ له أن يعيد السؤال. المسكينة ازداد ارتباكها وَحَرجها، ماذا تقول لهذا الوقح؟ الضابط الذي قاد رحلتنا استمتع بكل ساديّة بهذا المنظر. أما الشرطيَّة، فخلافاً لما تفرضه قيود مهنتها، بدت متألمة متعاطفة.

علّقت: شدّها رباط الجنس الواحد.

قال عماد: لا أدري لكنها بدت لي طيّبة ورقيقة وهي تتقدم من الشاويش وتهمس بأذنه: . . . نسائية.

هزّ الشاويش رأسه ولو أنه لم يكن قانعاً بعمومية الإجابة، إلاَّ أنه صمت، وعدنا نحن الثلاثة نتبادل نظرات ودٍّ طيِّبة أنا وهي والشرطية. بدت لي الشرطية لحظتها مثل الشرطية الحسناء في مسلسلات القنال الأجنبي.

صمت عماد.

قلت: وبعد؟

قال: عدنا للسجن.

قلت: والنهاية؟

قال: هذه مسؤوليتك.

المحطة/ ١٩٨٣

* * *

لأسباب لا مجال للحديث عنها بالتفصيل الآن، كان عليّ أن أكون في السجن، ولنفس الأسباب كان هناك عماد، ولأسباب لا مجال للحديث عنها أيضاً كان يأتيني كثير من النزلاء، يعرضون علي محاولات قصصية أو يروون لي كيف دخلوا السجن ويريدون أن أعكس لهم ذلك في قصة، أو ناس لديهم مشاريع أدبية عظيمة يقولون لي اقرأها، لعلها تنفع. . .

عماد فاجأني اليوم، سنين طويلة، ونحن معاً حتى صرنا نحفظ بعضنا بدقة متناهية، لكن لم يحدث أن حاول عماد كتابة قصة، أو طلب مني أن أكتب قصة عن شيء ما.

قال عماد: اليوم ذهبت للمستشفى.

قلت: الحمد لله على السلامة. خبّر. .

(كنت أقصد السؤال عن صحته).

قال: عدت لك بمشروع قصة.

تناولت قلمي مازحاً، وقلت: هاتِ.

قال: كما تعرف ذهبت اليوم للمستشفى.

قلت: التفاصيل مملّة، لا داعي لأن تقصها عليّ.

قال: لكن القارىء لا يعرفها.

تأكدت أن رفيقي جادّ.

قلت: انتظر حتى أصف السيّارة.

(مثل خنفساء عجوز كانت تقبع السيارة ــ الزنزانة بين بابي السجن الداخلي والخارجي، كانت تقف متحفزة مزمجرة على أرض الساحة الاسفلتية، أوامر الشرطة وحركتهم النشطة تثير ضجة يضيع معها هدير محرك الشاحنة. رغم هذه الضوضاء. . .).

ضحك عماد حتى احمرّ وجهي غيظاً.

وضعت القلم، حملقت بعماد حتى عادت إليه ملامحه الجدّيَّة.

قال: ما كتبته مقدِّمة طَلَلِيَّة لا ضرورة لها، قل سيارة السجن وكفى، الكل يعرفها.

قلت: لكنهم لم يجرّبوها.

قال: إذن اكتب عن الشمس اللاهبة، واستعمل كلمة (العهد)، وأسهب في وصف الحرارة داخل صندوق الصفيح المقفل، واربط الصورة بخزّان صديقنا غسان كنفاني و... قاطعته: ولو بلغ بك الغرور حدّ التطاول على غسان كنفاني.

قال: معاذ الله، لكني حين أقرأ فكرة مكررة على لسان كاتب جديد أشعر بالملل.

قلت: لماذا لا تكتب قصّتك بنفسك ما دامت بهذه الأهمية؟

قال: لكني لست بكاتب.

قلت: لا بأس، أَمْلِ عليّ.

ــ صعدنا السلّم الخشبي إلى الشاحنة كل واحد مقيد بذراع الآخر، اثنان، اثنان، إلّا أحدنا، كان عددنا بالوتر...

ضحكت: الوتر! والشفع وليالٍ عشر.

تململ عماد وأكمل: لسوء الحظ كان على أحدنا أن يطوّق القيد كلتا يديه، ولسوء حظه أيضاً فقد أجلسوه على عجل احتياط ملقى وسط صندوق الشاحنة رغم أن هناك مقعداً كاملاً شاغر. ابتسمت عندما صاح صاحبنا شاكياً:

ــ ألم يجدوا غيري للجلوس هنا؟ معي بواسير...

ضج الجميع بالضحك حتى أن الضابط المكلّف بمرافقتنا دق جدران الخزان من الخارج فتحت فمي دهشة: الخزان؟!

ردّ عماد: أقصد الصندوق.

وتابع: علّق أحدهم على توزيع أماكن الجلوس:

ــ الرجل المناسب في المكان المناسب.

تململ زميلنا الجالس على الإطار المطاطي.

ــ هذا مقعد كامل فارغ. لماذا يمنعونني من الجلوس عليه؟

وضج أحد المرضى المعتادين زيارة المستشفى:

ــ معنا زبائن من فوق يا شباب.

مَنْ فهم من الزملاء بدأ يغمز بعينه أو يفتل شاربه، أما من لم يفهم (مثلي) فقد اعترته حيرة وارتباك. ولم أفهم سبب تدفّق هذا السَّيل من التعليقات الماجنة، ولم أعرف أن كلمة (فوق) تعني قسم النساء الذي يقع في الطابق الثاني.

لم تطل حيرتي، فقد أقبلتا: دخلت (هي) أولاً وبمجرد أن أطلّت برأسها نفرت مذعورة، وحاولت النكوص مجنّبة نفسها خطورة مواجهة هذا الحشد الذكوري، رغم أن كل العيون النهمة والجائعة داخل السيارة كانت ترجوها أن تتفضّل.

من الخارج جاءتها دفعة في الظهر، وسمعنا صوت السَّجّانة:

ــ فوتي، يلعن أبو عينك، صرت تستحي هع؟

دخلت (هي) وتبعتها السَّجّانة، جلستا على المقعد الفارغ. سوّت بيدها ما انحسر من فستانها وتكوّمت مكانها وأخذت تنكمش على نفسها مع كل صَلْية رشقتها بها العيون الجائعة النهمة المحرومة، (هي) النقطة التي تستقطب أنظار الجميع...

قلت: باستثناء السَّجّانة.

قال عماد: بل والسجانة أكثرنا اهتماماً، لقد أبدت السجانة غيرة خفية تبدّت في نظرة شملتنا بها جميعاً ثم لملمتها في نظرة واحدة بطرف عينها اليسرى وهبّتها على الفتاة التي تجلس بجانبها.

قلت: بالتأكيد ليس هناك مجال للمقارنة، السجانة لا بد أنها عجوز بشعرات حادَّة قليلة تطل على وجهها المجعد، وجسد مترهل داخل بدلتها الرمادية، وساقين تتسلقهما عروق (الدوالي) ووجه قبيح مقطّب.

قال عماد: كنت أتمنى أن تكون كذلك، بل رأيت من قبحها الداخلي في تلك اللحظة ما هو أسوأ من ذلك. أما (هي) فأول ما استرعى انتباهي العينان الجميلتان المرتبكتان والشعر الأسود الفاحم الطويل وأناقتها البسيطة.

قلت: تعاطفت معها، أو أعجبك جمالها؟

قال: لا هذا ولا ذاك، إنه شيء أعمق لا أستطيع تسميته، لقد بدت لي بشكل عام متناسقة وجميلة، وجرحني همس الزملاء عن التهمة التي دخلت بها السجن كأنما هو موجّه لفتاة تخصُّني، كدت أصرخ بهم، كذب، افتراء...

قلت: كل الحق على السجن والحرمان، الواقع...

قاطعني: أرجوك، لا تنظر لي عن البروليتاريا الرَّثَّة.

قلت: لا أرمي إلى ذلك، ولكن هل قرأت قصة (مسحوق الهمس) ليوسف ادريس؟

قال: ما أحسست به لا علاقة له بهذه العناوين، لقد كانت الفتاة مرتبكة جداً، ومحرجة، لحد أنني تمنيت لو لم أخرج للمستشفى اليوم، ولا أواجه نظراتها المرعوبة التي كانت تلوذ بسجانتها (!) بما يشبه الاستجداء إذ وجدت نفسها فجأة في هذا الوسط (الخشن)، إلا أن الشرطيَّة لم ترحم وضعها الحرج هذا،

بل لكزتها بذراعها وهي تتمتم ببضع كلمات تؤكد الظنون بأن الفتاة من بنات الهوى.

هتفت: يا للقسوة؟

التفت إليّ عماد وقال: أتسخر؟

قلت: أبداً، إنها لقسوة حقيقية أن تضطر للجوء إلى سجانك طالباً الحماية، وإنها لقسوة حادَّة أن تطلب حماية أحدٍ ويخذلك.

قال عماد: بدا لي أن السجانة تنتقم منها.

قلت: تنتقم؟ لا أعتقد أن جريمتها التي دخلت بها السجن كانت ماثلة في تلك اللحظة، إلاَّ بشكلها العائم.

رد عماد: لعلّ كل ذنبها في تلك اللحظة أنها كانت أجمل من سجانتها بقليل.

المهم، بعد تلك المعركة الصامتة، ارتاحت السجانة لانتصارها، فباعدت ما بين ساقيها وأخرجت علبة سجائرها وأشعلت واحدة بحركة مسرحية مدروسة وكأن كل ما عداها لا قيمة له. وغام الفراغ القليل بالدخان. عيناي مصوّبتان نحو الفتاة، تلقَّفت نظراتي بخجل ولم تبادلني مثلها بل أطرقت، لم تقو عيناي على مفارقتها، لكن الدخان الذي كانت تنفثه السجانة أدمع عينيّ ــ تعرفني لا أطيق الدخان ــ قلت للمدخِّنة: (لو سمحت الجو خانق، بلاها السيجارة). نظرت إلي بازدراء وقلبت شفتها وأشاحت بوجهها، قمت عن مقعدي ومددت يدي أريد انتزاع السيجارة من فمها وإطفاءها. تصرّف غير مدروس، لكني فعلت ذلك!... ما كدت أمدّ يدي حتى تلقيت لكمة قوية في بطني من أحد الشرطة الواقفين على أبواب الصندوق أعادتني إلى مكاني، صرخت: «الدخان أعْمانا» وثار لغط الجميع... اضطر الضابط لمسايرتنا قليلاً كي نهدأ، لكن السجانة استمرت تدخّن غير آبهة بما يجري.

... ولكن خافضة البصر أو رافعته... لا بد أن تلتقي العين بالعين مرة. أربع عيون وكل ما سواها عدم. ابتسمت لي ابتسامة عذبة وكأنها تقول (بسيطة، ولا يهمك).

ابتسمت لها ابتسامة عريضة لكني سرعان ما تراجعت... (ما هذا سيلحظون هذا الخطّ بينكما، يجب أن تحرص...) لم يدم هذا الخاطر طويلاً، فسرعان ما عدنا نحدِّق ببعضنا...

قطعت متعة عماد بالحديث عن فتاته، وقلت له:

ــ بس، أتريد أن تقصّ علي حكاية المومس الفاضلة؟

غربلها الكتاب حتى شبعوا.

قال: أبداً، ساعتها لم أكن أفكّر (برمانة) الطاهر وطار ولا بتلك الفئة التي تؤهلها ظروفها لتكون أداة مرتشية بيد البورجوازية لتنفيذ مكرها ودسائسها.

صمت عماد قليلاً، ثم سألني بجدّ:

ــ فكرك ليش اختارتني من بين البقية؟

قلت: لأنك الأهبل بينهم.

ــ سيبك من المزح.

قلت: لأنّك وسيم.

ــ حكي.

قلت: لأنك تحدّيت الشرطة وأكلت لكمة.

قال: يجوز، قليلاً...

فكرت بالأمر جاداً، قطّبت جبيني وقلت:

ــ لعلك الوحيد بينهم الذي لم يقع أسير تصوّرات مسبقة، ونظرت إليها كفتاة بسيطة حلوة وبدون قوالب جاهزة.

قال: بالفعل، في تلك اللحظة شعرت أنها مجرَّد حوَّاء وأنني آدم.

ضحكت: هيك حرقت بنّها، لنعد إلى القصّة.

قال: لم يطل تفكيري بكيفية بدء الحوار معها، لقد امتدّ التواصل بيننا بسهولة ويسر، وتشعَّب بنا الحوار الصامت، السؤال يسحب إجابة والإجابة تمدّ خيوطاً من الملاحظة والاستفسار ودورة التواصل الإنساني تزداد قوة وحميمية فتعزلنا عن كل ما حولنا، تعزلنا عن (مهرّب المخدرات) الذي يجلس على الإطار والذي ربما دارت برأسه خواطر عديدة حول جلسة (كيف) تكون (هي) (مازتها). تعزلنا عن ذلك (القوّاد) الذي يرى فيها ولا شك مصدر ربح لا يقدَّر بثمن.

وأما هذا (القاتل من أجل الشرف) فربما كان يتميز غيظاً وحنقاً لوجود مثل هذه الزانية على قيد الحياة. وتعزلنا عن رفيقي الذي يشاركني (الكلبشة) والذي يرمقها بكل التعالي والاحتقار الممكن...

قاطعته: لكنك قلت له بعد أن رجعتم حين أنَّبك على فعلتك: (حصرم رأيته في حلب، لو ابتسمت لك لما أنَّبتني).

قال: مجرد دفاع عن الذَّات، لكنه كان ينظر لها بتعالٍ مهضوم.

قلت: أكمل.

أكملَ: كم كرهت الخروج من الصندوق حين وصلنا!... صاح الضابط: كل واحد في مكانه، سننزلكم واحداً واحداً.

نزلت هي أولاً، تابعتها بنظري، ثم سرَّحت النظر عبر

الباب، رائحة عبقة تنتشر في الأرجاء، غير ما ألفته في السجن، إنها رائحة الحياة... من خلال الباب أنظر إلى العالم الأرحب، عالم الحرية، وبدأت تتوارد الذكريات والأطياف، الشوارع، السيارات، الناس، الصحب، البيت، الزرقاء، الجامعة... أفيق فجأة على صوت ينادي باسمي:

اخرج، أمشي إلى العنبر المخصّص لنا في المستشفى، يفكّون القيد على باب العنبر وأدخل، على يمين المدخل. مكتب يجلس خلفه شاويش سمين بليد تكدّست أمامه عشرات الأضابير، وعلى يمين هذا التمبل خزانة قديمة مليئة بأوراق غير مرتبة، على يسار العنبر أقيمت مغسلة قذرة وعلى الحائط فوقها علّقت مجموعة من القيود والسلاسل المعدنية، وعلى طول العنبر توزّعت ستة أسرّة عسكرية وبجانب كل سرير صندوق أخضر مستطيل.

(هي) كانت تجلس على أحد هذه الصناديق، وهو الأقرب لمكتب الشاويش، ابتسمت بعذوبة فائقة عند دخولي، لكن قطع صفو ابتسامتها تلك اليد التي امتدّت لتمسك بمعصمي وتقودني إلى مكتب الشاويش، بعد أن سجّل اسمي ذهبت وجلست بجانبها.

الشاويش انزعج لجرأتي فأمرني أن أجلس في مكان آخر، لكنها هتفت: إنه من أقاربي. خرج صوتها رقيقاً عذباً متلعثماً، كدت أحضنها لولا حراجة الموقف. الجواب لم يعجب الشاويش، رقّص شاربيه ونقل بصره بيننا وبين السجّانة فأومأت السجّانة برأسها (نعم)، فاكتفى الشاويش بالتعليق:

شو حابسين العيلة كلها؟

تكلمنا... بل اندلقنا، تحدّثنا كأننا نعرف بعضنا منذ ألف عام. ودار فينا العنبر، ودرنا معاً، وانفتحت قنوات جديدة وتقطع كل ما بقي من خيوط الحذر والخجل والتحفظ، ولم تعترض الشرطية هذه المرة، بل رمقتنا بنظرة حنان وكأنها تقول (... كيف، أنا معكم، ها أنذا لم أُفشي سرّكم للشاويش). لم نتوقّف عن الحديث، إلاّ عندما نادوا اسمي للعيادة.

ـ عماد.

ـ نعم.

ـ عمرك؟

ـ ٢٣ سنة.

ـ مدّة الحكم؟

ـ ١٠ سنوات.

ـ المهنة؟

ـ طالب جامعي.

ـ مرضك؟

ـ القلب... عفواً، عيوني... عيوني تؤلمني.

لاحظت (هي) ارتباكي واتسعت عيناها فرحاً وكادت تقول لي (أحبك) لولا...

□ □ □

دار الآداب تقدم

سلسلة بطولات عربية

- **لبيك أيتها المرأة**، بقلم سليمان العيسى.
- **الحدث الحمراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **ابن الصحراء**، بقلم سليمان العيسى.
- **صلاح الدين الأيوبي**، بقلم فالح فلوح.
- **زنوبيا فارسة الصحراء**، بقلم فالح فلوح.
- **سيف الدولة الحمداني**، بقلم فالح فلوح.
- **معركة الزلاقة**، بقلم فالح فلوح.

دار الآداب ـ شارع اليازجي ـ بناية مركز الكتاب ـ ص. ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٨٠٣٧٧٨